# حقيبة وكفاح ..

قصة بقلم فتحي زكي

اخيرا جاء الصباح . كانت بالنسبة له ليلة قلقة . كم اخذ يتحسس جيبه الايمن في الظلام .. وهو يتقلب على السرير الخشبي الذي يصر المعلم دسوقي صاحب فندق السعادة في شارع كلوت بك ان يغطيه ببطانية كالحة لايهام الزبون انه سرير مريح .. لاتجد مثله في ارقى لوكاندات شارع ابراهيم باشا .

ومع ذلك فلن تكتشف السر الا بعد ان تضطرك الظروف السيئة الى ان تقامر براحتك وتقصد الى لوكاندة السعادة في اخر الليل . هناك ستجد بلية ينتظرك بابتسامته محييا وهو يذوب شوقا الى اللحظة التي تخرج فيها الثمانية قروش .. اجر المبيت . عندئذ فقط ستتحول ابتسامته الكاذبة الى خطوات مهرولة .. يصعد بها السلم الخشبي المتآكل .. ليقودك الى مقرك الاخير .. بعد يومك المتعب .. قبل ان تفكر مليا .. وتنظر الى المكان بامعان .. وتوشك ان تخونك الشجاعة .. فتهرب من حيث اتيت . وما ان يفتح باب الحجرة حتى يشير الى احد الاسرة المهجورة وهو يتمنى لك ليلة مريحة في الفراش الوثير .

عندئذ ستندم ندما شديدا على هذه المغامرة الفاشلة .. وعلى الثمانين مليما .. وستكتشف انه كان خير لك ان تمضي الليل في قهوة المحطة .. بواحد شاي .. عند بوسا الجرسون الامير .. مادام النوم متعذرا على اية حال !!

ولكن اغلب زبائن هذه اللوكاندة لايمارسون الملل مثلك .. فقد مضى عهد طويل منذ ان قطعوا صلتهم بهذه العادة المتعبة . انهم تعودوا هذه النومة .. والفوا صوت المعلم دسوقي وهو يصيح في اي منهم في الصباح .. لو انه اطال اغراق رأسه بالماء .. كما اعتادت ابدانهم على قسوة خشب السرير الحنون .. وهكذا يستسلم الواحد منهم الى نوم لاشيء فيه .. ولا احلام ..

ولكن الليلة الماضية كانت بالنسبة لبنيامين .. ليلة قلقة ومبعث قلقه لم يكن الحشرات التي نخرت اخشاب الاسرة ويحلو لها بالليل ان تخرج من الاعشاش .. لتداعب الاماكن الطرية من اجساد الزبائن . لا .. انه كان طول الليل يتقلب على جنبه الايمن والايسر .. وهو ينظر الى حسين ملوخية بارتياب .

نعم .. فان بجيبه مبلغا ماكان يحلم مرة ان يمتلكه في يوم ما . ان بجيبه خمسة وسبعين قرشا كاملة .. اوه يالها من سعادة ان يمتلك المرء مثل هذا المبلغ الكبير .. فماذا لو قلق ملوخية بالليل .. وقام يبحث في جيبه عن سيجارة كالمعتاد . ولطش المبلغ او شيئا منه ؟

وظل طول الليل يبتسم وهو يتذكر كيف حصل على هذه الثروة من الدكتور ارتين . فالحكاية صدفة . احقا ماحدث ام انه يرى في خياله فيلما سينمائيا لايمت بصلة الى واقع عالمه الذي ظل يحياه خمسين عاما ذاق فيها الكثير .. الكثير !! . فانه ماكان يستطيع مهما فعل وجاهد ان يحصل على هذا الرقم القياسي .

كان المساء قد اوشك ان يختم قصة تجواله بالكتب والمجلات القديمة ككل يوم بقروش زهيدة ـ على احسن الفروض ـ يستطيع بالكاد ان يستبقي منها الثمانين مليما اجر المبيت بعد ان يلهف طبق الكشري من عربة الواد ابو سنة .. ويكمل باقي فراغ بطنه بالماء .. ثم يدخن له سيجارتين مع فنجان الشاي بالحليب في قهوة فؤاد الكبرى ..

نعم .. كانت الليلة توشك ان تنتهي كالمعتاد . ولكنه كان يشعر بالاطمئنان نوعا ما .. وبالثقة في انه سيجد اجر المبيت وثمن العشاء . فالليلة ليلة الاحد .. وبيده ثلاث اعداد قديمة من مجلة رومانتسو وبيساروس التي عود الخواجا كارلو ان يشتري منه بعضها مساء كل سبت ..

وهكذا قام في الساعة السابعة ليتجه الى قهوة عماد الدين .. فهناك سيجد الخواجا كارلو كما عوده .. وسيسكت الذئب الجائع في اعماقه طالبا طعاما .

ولكنه لم يجده كما توقع .. وتهشمت آماله وتلاشت وهو يبعثر نظرات مجنونة قلقة في انحاء المقهى . ودار في المكان مرات وهو لايصدق عينيه .. موش معقول ؟!! وسأل عنه الجرسون بلهفة .. فأجابه وهو يسير بالطلبات في يده مسرعا « مجاش كارلو ياخبيبي » ثم سار وراء الجرسون واخذ يرطن معه بلغته اليونانية .. وكأنه يستجدي منه أملا باحتمال مجيء كارلو الليلة .. ولكن الجرسون تركه .. وذهب لحاله يبتسم لزبون جديد ..

ثم ذهب يبحث عنه في المقاهي المجاورة . كان يدخل المقهى بعد الاخر وهو يقول « ربما وجدته هنا ». وتأخذ نظراته وهو عند الباب تجري بين الموائد وتجري ..حتى تعود الى حيث يقف لاهثة .. يائسة ..

واخيرا عاد الى مقهى عماد الدين .. ووجد بعض اصدقاء كارلو هناك .. فتجرأ وسأل احدهم .. فقال له وهو يضحك من ذقنه الطويلة ... وملابسه المتسخة . ان كارلو ذهب الى السينما مع زوجته . وعندئذ ذابت بقية الامل في صدره في بحر من العدم .. واحس انه يغرق .. وخارج المقهى .. جلس على الرصيف يتذوق مأساته الحمقاء . حقا ليست هذه هي المرة الاولى التي لايجد فيها اجر المبيت وثمن العشاء . ولكن .. ان يجد نفسه امام المشكلة بعد ان خدعه امل كبير ..

انه قد خلف من ورائه في الطريق خمسين عاما جائعة شريدة ... لم يشعر في يوم منها بشبع الاستقرار وحلاوته . كم حرفة زاولها في صباه وشبابه .. حتى انتهى به المطاف في كهولته الى الطواف في شوارع القاهرة بالكتب والمجلات القديمة .. كمن يستجدي حظه البخيل .. بعد انعجزت الاثنتا عشرة لغة التي يتكلمها بطلاقة ان توفر له الحياة ..

ان الاتون الذي انصهر فيه جعل منه فيلسوفا .. وانه لمقبل في اوقات فراغه على قراءة المجلات والكتب التي يشتريها من سور الازبكية من عند المعلم زغلول .. قبل ان يبيعها .. لقد اصبح اخيرا بعد هذا المشوار الطويل العقيم كأحدى هذه المجلات القديمة التي يبيعها مجلة

قديمة تساقط فوقها عرق السنين واتربتها .. ولكنها مفتوحة لكل ناظر .. يقرأ فيها خلاصة مأساة دولية .. هو عنوانها المكتوب بالخط العريض . نعم انه ليس الا الطفح الجلدي الظاهر لمأساة تاريخية دفينة بدأت بمطامح حقير من رجال التاريخ يدعونه السلطان عبد الحميد كانت له مآرب في ارمينيا .. انتهت بحرب اتت على قومه .. ومات فيها ابواه وهو رضيع .. ثم تقاذفته موانىء البحر الاسود والاحمر والابيض. حتى رسا اخيرا في مصر منذ ثلاثين عاما دون ان تدري اي سلطة في العالم .. بوجوده على قيد الحياة ..

وازداد صراخ الجوع المفترس في داخله وهو يجلس على الرصيف .. واحس بانيابه تدمي جوفه .. وشعر انه يوشك ان يموت من الجوع . وذكره هذا الاحساس ثانية بابيه وامه . فقد حكى له انهما ماتا من الجوع ايضا في الحرب الاهلية بين ارمينيا والسلطان عبد الحميد مع ان الناس في مصر يقولون على سبيل الاستحالة : هو احد بيموت من الجوع ؟!.

واخيرا قادته خطواته الحيرانة الى سور الازبكية .. للمرة السبعين. فليس امامه الا ان يرجع المجلات للمعلم زغلول .. ويعتذر عن عدم قدرته عن البيع اليوم . معلهش .. سيسمع من المعلم كلمات نارية يقذفها في وجهه في نشوة وهو يهين كرامته .. ولكنه سيذهب بعد ذلك ليبحث عن طريقة اخرى غير بيع المجلات . للحصول على طلبات الليلة .... فاحيانا يكون مع حسين ملوخية مايكفي حاجته ويزيد ..

وهكذا اقدم على تنفيذ الفكرة . وامره لله .. وهو يحاول ان يهيىء نفسه وحواسه لكلمات زغلول ونظراته الوقحة ..

ولكن حدث هناك ما لم يكن يتوقعه .

فان نظراته المتعبة وقعت على عنوان ذلك الكتاب الذي كان الدكتور ارتين قد اوصاه مرارا بالبحث عنه . وكلمة من هنا وكلمة من هناك .. استطاع ان يقتلع الكتاب من المعلم بالثلاثة قروش التي كانت كل مامعه عندئذ .

وحمل الكتاب تحت ابطه مع المجلات .. وهو يحتضنه بحنان امنياته المتواضعة . ان كل امله ان يعطيه الدكتور ارتين خمسة عشر قرشا يحل بها ازمة ليلته .. لقد قال له ارتين كثيرا واوصاه مرارا بالبحث عنه .. فهل خمسة عشر قرشا بالشيء الكثير ؟!

ولا يدري كيف وصل الى الاجزخانة بالظاهر قبل ميعاد غلقها . انه لايذكر . هل ركب الترام ؟.. ام الاوتوبيس ؟.. ام حملته قدماه ؟.. ام طار به امله ؟!.. ذلك مالا يستطيع ان يؤكده .

كل مايذكره انه عندما وصل .. قدم الكتاب للدكتور بابتسامة ... وتلقفه الدكتور منه بابتسامة ايضا بعد ان فتح عينيه من خلف نظارته السميكة .. ونظر اليه كمن لايصدق .. ثم فتح درج البنك واخرج له جنيها كاملا .. فالتقطه بنيامين دون كلام . ولكن ..لماذا كان ارتين اللئيم يبتسم بمكر ؟!.. لابد ان الكتاب يساوي لديه اكثر من جنيه !. على اي حال فان بنيامين اسرع بالهرب خارجا من الاجزخانة .. قبل ان يرجع الرجل البخيل في كلامه ..

وكاد عقله ان يطير .. وهو يضع النقود في جيبه لاول مرة . اهكذا تهبط الثروة كما يحدث في افلام السينما ؟!.

وخرج الى الطريق .. وهو يحس ان الارض تهتز من تحته . كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء .. وكان كل شيء قد تغير في نظره . الهواء خف على صدره والانوار اصبحت تتراقص في عينيه .. وازدادت حلاوة النساء لدرجة لم يحس بها من قبل وانقلب كل شيء من امامه الى رقصة مرحة .. كم هي سعادة ان يمتلك المرء كل هذا المبلغ حتى لو لم يفعل به شيئا . يكفي ان يضع يده على الورقة الخضراء حتى تعرق في جيبه ويشعر لهذا بامتلاء وثقة !! .

ووضع يديه في جيبي بنطلونه .. وسار على مهل في الشوارع الراقصة الاضواء .. وقد انعكس رقصها في سيره المتباطىء . كان يجود بابتسامته على كل شيء .. فقد كان يحس بالحرية تسري في كيانه . وتوقظ احاسيسها شامخة .. ان بجيبه جنيها كاملا .. يستطيع ان يفعل به مايريد . اذا اراد ان يدخن فلن يضطر ان يبتسم في وجه ملوخية .. ويقول له في كل جملة يامولوخية بيه .. حتى لاينساه وهو يخرج من جيبه علبة الهليود .. ولن يضطر ان يقف ذليلا امام فترينة فؤاد ليعطيه الرجل سيجارتين لورج بالشكك .. فان لديه نقودا .. نقودا اكثر مما يلزمه . وستحقق له الحرية الليلة ..

وسار يمضغ سعادته الجديدة في بطء .. ويشعر لمذاقها بنشوة تتراقص لها كرات الدم في عروقه .

ومرت امامه امراة جميلة ... اخذ يلتهمها في ثقة من يملك في جيبه عشرة جنيهات .. انها جميلة .. وكل قطعة من جسدها تغني مقطعا من اغنية حب جميلة ...

ولكن المراة اختفت في الطريق .. ابتلعها تيار الناس قبل ان يفيق من سماع كلمات الاغنية .. ولكن لم تنج امراة بعد ذلك من نظراته المتعبة ..

وخيل اليه ان الجميع يبتسمون له ويضحكون في وجهه .. واحس انه قريب منهم كما لم يكن في حياته من قبل .. الا يملك في جيبه جنيها ؟!... انه متاكد ان بعض الذين يرتدون ثياب الافندية لايملكون مثل هذا المبلغ . فقد مر عليه من قبل افندية مناظر كثيرون .

وتذكر ملوخية مرة اخرى .. انه يستطيع الان ان يمارس احتقاره له دون خوف .. فهو ليس بحاجة اليه .. فان بجيبه نقودا . ولن يضطر الليلة ان يجلس معه في القهوة ليستمع له وهو يحكي .. في غير قليل من الزهو والتظاهر اخبار مغامرات ماضيه العجيبة منذ ان كان مشخاتي عند منيره المهدية .. يغني على المسرح بملابسه الخضراء .. وكيف انه كان يمارس اخر كل ليلة اللذة مع زميلاته .. ويعيش كهارون الرشيد ..

ومع انهم يعرفون جيدا ان الحال قد انقلب اخيرا مع ملوخية ..فاصبح ياخذ اللذة في ظلام الليل الى بيوت غيره من الراغبين .. ويعود اليهم وفي جيبه ثمن المشوار .. الا انه يستطيع ان يتظاهر امامهم بالفروسية والعظمة .. وكل سلاحه في اخضاعهم هي علبة الهليود التي يمر بها عليهم وهو يجلس ليحكي اسطورة ماضيه التي يستر بها تهتك حاضره .

ولكنه الليلة لن يضطر الى سماع الاكاذيب .

ولم يدر ـ وهو يسير مع خواطره في الطرقات ـ ماذا يفعل بالجنيه . كانت به رغبة في ان يحقق به كل مايمكن من المتعة . انه لم يكن يحلم ان تهبط عليه هذه الثروة .. وقد جاءت على غير انتظار .. فلماذالاينفقه دون اسف في اي شيء يعود عليه بمتعة لم يكن قد جربها من قبل ؟!.

وسأل نفسه وهو يسير مختالا : ماذا يريد ؟!. ولكنه لم يعرف ماذا كان يريد ! لقد تاه في زحمة الاشياء الجميلة التي يراها في الشوارع الضاحكة .. ونفسه تشير الى كل ما حوله : اريد هذا .. اريد هذه ..

ولم يكن قد فقد عقله تماما حتى يظن انه يستطيع ان يلبي كل طلبات نفسه الظامئة بالجنيه . حقا انه مبلغ كبير .. ولكن هناك ما هو اكبر

من الجنيه . فكان عليه ان يختار من بين الرغبات اوفقها واحلاها .

وبحث عن الجوع الذي كان يستبد بامعائه منذ ساعة .. ولكنه لم يجده . كان يشعر بامتلاء وزهد في الطعام لم يألفه من قبل . وهكذا ظل يسير ثلاث ساعات دون ان يتحرك الجنيه من موضعه في جيبه !!.

واخيرا وجد نفسه في قهوة فؤاد . واعطى بائع السجاير ما عليه من دين .. واخذ علبة جولد صغيرة .. كما اعطى بائع البسطة التسعة فروش التي كان يدينه بها .. ثم شرب الشاي .. ودخن سيجارتين .. ومع ذلك بقي معه ما يزيد عن الثمانين قرشا وعلبة سجاير بها سبعة سيجارات . واخيرا قادته قدماه .. بحكم العادة .. الى لوكاندة السعادة .. وهناك ظل يتقلب طول الليل من القلق والخوف من ان يقوم ملوخية .. ابن اللئيمة .. بالليل ويسرق شيئا من ثروته الطائلة .

الى ان سمع قبقاب المعلم دسوقي صاحب اللوكندة يزأر في ظلام السلم متجها الى دورة المياه .. فعرف ان الفجر قد اقبل . واحس بكره غامض للمعلم .. الرجل الخسيس .. الذي يعر .. رغم كل شيء ان يفتتح اليوم بالصلاة ... وتمتمة آيات قرآنية .

ثم سمع خشب السلم المتآكل يئن تحت وقع خبطات قبقاب المعلم التي يتحرك معها بدنه الضخم . واحس بنيامين بأنين السلم يؤلمه .. ويهيب به ان يسرع خارجا من هذه المقبرة .. ولا يرى وجه احد .. وقبل ان يسمع صوت دسوقي الكريه وهو يبدأ حملة الزعيق .. وقبل ان يتبادل الشتائم مع الزبائن الساخطين لانه بعد ان يتوضأ يقفل محبس الحنفية حتى لا تنزف الا قطرات .. كأنها دمه يجود عليهم في سخاء حاتمي .

فاذا احتد معه احدهم فانه يقول في غطرسة وثقة :

ـ اللي مش عاجبه يوريني عرض كتافه .. وميجيش تاني

فانه متأكد من مجيئتهم ثانيا وثالثا !

ولماذا ينتظر حتى يلتحم مع دسوقي في خناقة قد يستفحل امرها اليوم .. فانه لن يقدر ان يصبر على وقاحة المعلم . ان في جيبه نقودا .. فلماذا يحتمل اهانة هذا الرجل الخسيس ؟! . وهو ايضا يريد ان يهرب بجلده قبل ان تصحو فرقة الذئاب .. وتلتف حوله .. وتبدو عليه مظاهر الثراء .. ولا يستطيع الافلات منهم سالما . وفوق هذا فانه يريد ان يعرف كيف يستقبل الصباح من يملك ثمن افطاره !!

وعندما تمطى الصبح باشعته من خلال النافذة بعد قليل .. صعد بلية الى الغرفة وصاح بصوته الذي يستمد قوته من غطرسة المعلم دسوقي وفظاظته في بقية النائمين .. فاضطروا على مضض الى القيام . وفرك ملوخية عينيه المنتفختين في تثاؤب وهو ينظر بجواره الى فراش بنيامين. فلما لم يجده طار النوم تماما من رأسه وفاق .. فسأل عبده عنه في صوت يختلط فيه القلق بالخوف والرغبة في التدخين. فاجابه عبده في ملل .. ونظراته تلعن الصباح الذي يضطره للقيام :

ـ محدش حس بيه الليلة

ـ يكونش داسه اتومبيل يا وله ..

ـ واللاخدوه تحرى ...

ـ مين عارف ؟!

وعند دورة المياه اصبح بنيامين حديث الكل . انهم لم يحسوا به الليلة الماضية .. والواد بلية يؤكد ان شخيره البركاني كان سيهدم سقف اللوكاندة .. ورجحوا ان يكون عسكري الطوف قد اخذه تحري وهو يعود بالليل الى اللوكاندة ..

ولكن بنيامين عندئذ كان يجلس في مقهى بسوق التوفيقية وهو يمارس احساسه العذب بالفرار من اولئك الفجر .. وينشى وقد احس بالحرية . فهنا لا احد يعرفه .. ولن يقيد تصرفاته نظرات ملوخية ... ولن تترقب حركاته قفشات الاعرج .

وسبح لحظات في سعادته الجديدة .. لن يذهب اليوم الى السور ليأخذ مجلات من المعلم زغلول .. ليلف بها ويدور على الزبائن في المقاهي .. فانه منح نفسه اليوم اجازة من العمل .. كأحسن موظف... محدش احسن من حد !

ولما احس بالملل من جلسته قام من المقهى بعد ان دفع ثمن الشاي وترك للجرسون بقشيشا جعله يودعه بنظرات تعجب ... وذهول .

ثم سار في الشوارع مرة اخرى..واحس بالجوع.ولكنه لم يرد ان يأكل اي شيء يقابله كما كان يفعل من قبل ... فانه كان يسأل نفسه : ماذا يأكل ؟! كان يريدان يأكل شيئا شهيا فان لديه نقودا ... وانه ليستطيع بها ان ينال ما يريد .

واخيرا طرأت له فكرة : لماذا لا يأكل كبابا في افخر مطاعم القاهرة ؟!. فان بجيبه الان ستين قرشا او يزيد .. ولن يساوى غذاؤه في مطعم الشيمي مثلا اكثر من ثلاثين قرشا بعد دفع البقشيش للجرسون .. كأحسن زبون .

ولكنه عاد فاحجم عن الفكرة . فان هذه الاكلة ستقوض ثروته .. وسيعود شحاتا كما كان . وعلى اي حال فان المثل يقول « عشوة ليلة متقومش بهزيل » . ولكن الرغبة المجنونة عادت تموي من جديد في داخله . فان متعته التي يبحث عنها ليست في الطعام في حد ذاته .. بل في الجلوس في المطعم .. مثل باقي الزبائن المحترمين .. واستنشاق طعم المكان النظيف .. ورؤيته لاصحاب الوجوه النظيفة وهم يأكلون طعامهم في هدوء وهمس .

كان يريد ان يجرب هذه السعادة ولو لمرة واحدة .. والا فما فائدة النقود التي بجيبه والتي حصل عليها دون توقع ؟!. ربما لن تتاح له فرصة اخرى . قد يقولون عنه بعد ان يعود اليهم مفلسا كما كان : اقرع ونزهي .. ولكن لا يهم كل هذا بجوار ما سيحصل عليه من متعة التجربة .

ومرت ساعة .. اخذ يناقش فيها المسألة بكل احتمالاتها .. وقيمة الستين قرشا الباقية في جيبه تتضاءل .. وتتلاشى كألسنة البخار بجوار النشوة التي اخذ يتوقعها من ممارسة حقه في دخول المطعم الفاخر .. كأي جنتلمان يصطحب حبيبته او زوجته الى ذلك المكان .. فانه سيصطحب الى هناك حرمان خمسين عاما .. وستذوب مع اللقيمات الدسمة كل مرارة ايامه الممزقة .

واحس قليلا قليلا انه يصعد فوق قمة جبل من النشوة .. تاركا من وراء كل ما كان يعلق بخاطره منذ لحظات من خوف على ضياع بقية ما معه من نقود ليعود شحاتا كما كان . واحس انه قريب من القمة فالمطعم على بعد خطوات من موقعه .. والنقود بجيبه .. وليس امامه الا ان يتقدم خطوة فخطوة .. حتى يجد نفسه جالسا في المطعم يوزع على الجالسين من امامه وبجواره نظرات تعارف يملؤها الاحساس بمشاركة الطعام.. الفة وزمالة واخوة .. والجرسون في ملابسه البيضاء ووجهه الاسمر اللامع ينحني له في احترام ليسأله وهو يبتسم عما يريد من طعام حتى لتظهر اسنانه البيضاء كنجوم منيرة في ليل وجهه الاسمر.

وتقدم .. واخذ يرفع قدميه وهو يملأ صدره بانفاس واثقة .. فقد اصبح قريبا من تحقيق هدفه ، ليس امامه الا ان ينحني يمينا في

الشارع المقبل .. ويسير بضع خطوات حتى يصل الى كشك السجاير الذي هناك .. ويجد نفسه امام المطعم يدعوه في ترحاب .. وما ان يدفع الباب دفعة بسيطة حتى يسرع الجرسون الذي يقف بالخارج ليكمل فتحه له .. ويقوده في ادب واحترام الى احدى الموائد الخالية ... ولن ينسى ان يكافئه ببقشيش لا بأس به

وبعد لحظات كان قد وصل الى كشك السجاير .. وظهر المطعم الانيق في الضفة المقابلة من الطريق يزهو بأناقته .. وابوابه الزجاجية .. ولم تستطع العربات التي كانت تمرق في انسياب ان تمنع عينيه عن رؤية بعض ما بدا بداخل المطعم.

فعلى المائدة القريبة من النافذة الزجاجية كان يجلس شاب مع حبيبته .. يأكلان في ابتسام . كانت هي تمضغ اللقيمات في تذوق هادي.. وعيناها تنظران الى الطبق في خجل .. وكانت نظراته هو تمضغ جمالها الخجول في نشوة سعيدة .. كانا فوق قمة الجبل ، لا يشعران الا بسعادتهما .. وتمنى لهما بنيامين مزيدا من السعادة .

واستطاع ايضا ان يرى الجرسون .. بحزامه الاخضر .. يسير بين الموائد كراقص رشيق حاملا الاطباق الشهية للجالسين في انتظار .

ورأى وهو يقف مكانه في الضفة المقابلة .. حارس الباب ينحني لاحد الزبائن وهو يخرج بعد ان يضع في يده ورقة نقدية . وانساب الى اذنيه لحن جميل .. من فتحة الباب . فالموسيقى تعزف اذن داخل المطعم.

ثم بدأ يعبر الطريق . الخطوة الباقية التي تصعد به فوق قمة الجبل .. واللحن الجميل ينساب من اعماقه .

وكانت نظراته مشدودة الى الباب الزجاجي .. وحواسه كلها مركزة في فتحته الصغيرة .. الفتحة التي سيمرق منها بعد لحظات الى النشوة المنتظرة .. وكلما تقدم خطوة ازداد اللحن في اعماقه اضطرابا وصخبا.. فقد بدأت تتضح له نظرات الجرسون الاسمر .. وهو يقف بالباب كحارس عنيد للجنة .

وفجأة وجد نفسه فوق الرصيف .. امام المطعم .. واللحن في اعماقه قد بلغ قمة من الصخب توشك على الانفجار ..

اما الحارس .. فقد رمقه بنظرة وقحة .. وشخط فيه .. وهو ينظر الى حذائه الممزق الملطخ بالطين :

ـ متحاسب يا اخينا .. وسخت البلاط .

وفي غمار الصدمة لم يعرف بنيامين كيف يجيب .. شلت احاسيسه كلها .. واحس انه يهوي في بئر من الصمت المظلم . فلما وجده الجرسون يتحرك نحو الباب مد ذراعه ليوقفه :

ـ حيلك .. مقلنا حاسب .. عاوز ايه ؟!. اتحرك يالوح .

وازداد ارتباك بنيامين . ابعد هذا الاستقبال الكريم يستطيع ان يبوح للجرسون برغبته في دخول المطعم .. وممارسة حقه في الاكل .. كأي زبون من الجالسين في جيبه نقود ؟!.

وود بنيامين في تلك اللحظة لو استطاع ان يجيب على سيل الاسئلة الذي كان يهدفه به الجرسون اللامع الوجه .. فانه في صمته الرتيب اخذ ينظر فيما حوله .. واستطاع ان يرى صورته في زجاج الباب .

لاول مرة منذ وضع النقود بجيبه بالامس ينظر الى مظهره الخارجي .. لحيته الطويلة وبنطلونه الكالح المتسخ .. وحذائه المبرقش بالطين والاتربة .. وابتسامته الممزقة تعلو ما على وجهه من صدأ

وبدل ان يصعد فوق قمة الجبل .. احس انه يهوي في قاع البئر المظلم . فقد سمع الجرسون يقول له لما راه صامتا كالجماد :

ـ انا عارف بتتحدفوا علينا من اين ؟!.

ثم نادى بصوته الحاد على زميل له بالداخل :

ـ ياعثمان .. شوف لقمة للجدع ده خليه ينجر .

واحس بنيامين بالكلمات القاسية كسكين حادة تذبح كبرياءه . ولم يستطع ان يصبر اكثر من هذا . فصاح في الجرسون .. ولكنه لايعرف ماذا قال ..

ثم انسحب عائدا يتوارى من الخجل المر الذي اخذ يسمم لحظاته المختنقة . واستطاع ان يلمح المرأة الخجولة .. وقد تخلت عن خجلها الان .. تنظر اليه في ابتسامة وقحة . ساخرة من منظره .. وشفتاها تتمتمان خلف زجاج النافذة بكلمات لايسمعها . واحس بالرغبة في ان يبصق على شيء .

وفي طريق العودة ... شعر انه متعب النفس .. وانه ضائع ووحيد. ومنذ الليلة الماضية لم يشعر بهذا الشوق الجارف الى ملوخية وبقية الاصدقاء . فاولئك لن ينظروا في سخرية منه ومن منظره الكالح .. فانهم ينظرون بقلوبهم ..

كان منذ الصباح يهرب منهم ويظن انه يستطيع ان يصعد من نطاقهم الى قمة الجبل ... وها هو يعود الان وقد ادرك شيئا اخر .. لابد ان يصعدوا معا .

وانحنى في الشارع الجانبي القريب من اللوكاندة .. عند مسمط الامراء .. واشترى من البائع مقدارا كبيرا من محمة الرأس .. حرص على ان تكون كافية للمجموعة كلها .. فانه سيولم لهم وليمة .. وليمة العودة .

ولما رأوه يعود حاملا بين يديه هذه الثروة من الطعام .. استقبلوه بلذعاتهم الحادة وقال له ملوخية وهو يضربه على كتفه :

ـ ازيك يا بنيامين ...

ولاحقه عبده :

ـ يخرب بيتك .. افتكرناهم خدوك تحري زي المرة اللي فاتت ..

ثم قال ملوخية دون ان ينتظر جواب بنيامين :

ـ ممعاكش سيجارة بقى ؟!.

فاجاب بنيامين كمن يفيق :

ـ ازيك يا ملوخ .. انا بدور عليك من الصبح .. هوا انا اقدر اعيش من غيرك .. معاي سيجارة ونص .

ولم تؤلمه هذه المرة كلماتهم وقفشاتهم المريرة .. كان يشعر بها كبلسم يحنو على جرح عميق في كبريائه .. على دمل ..

القاهرة

فتحي زكي


صدر حديثا

**القومية والانسانية**

**للدكتور عبدالله عبدالدائم**

( طبعة ثانية )

دار الاداب ـ بيروت